اقرأ باسِم رَبّـك

كان في الجاهلية جماعة تسْتقبح ما عليه قومُهم من السَّفَهِ، وشرب الخمر، وعبادة الأصنام، وارتكاب الآثام، وكانوا في حَيْرَة من أمرهم، يدفعُهم إحساسُهم الطاهرُ إلى نَبْذِ العاداتِ القبيحة التي يرونها في قومهم، ولكنهم لا يجدون لَهُمْ مَنْ يرشدهم ويهديهم إلى الطريق المستقيم.

وفي يوم قال قائلهم: يا قوم، تعلّموا ـ والله ـ ما قومُكُمْ على شيءٍ، لقد أخْطَئوا دينَ أبيهم إبراهيم، مَا حَجَرٌ نُطيفُ به، وهو لا يَسْمع، ولا يُبْصر، ولا يضر، ولا يَنْفَعُ؟

يا قوم، التمسوا هدايةً لأنفسكم، واطلبوا دِيناً صحيحاً تسيرون على منهاجه، فإنكم ـ والله ـ لستُم الآن على شيء، لا تهتدون إلى الدين الصحيح، ولا تسيرون على الطريق السليم.

* * *

كان بعضهم ينقل الحديث إلى بعض، على هذه الصورة، التي تحاول أن تَشُقَّ طريقَها من سوادِ الظلمةِ إلى نور الحقيقة.. وكيف يهتدون في ديارهم، وليس أمامهم هاد، ولا رسول؟

فخرج بعضُهم يلتمس الحقيقة، فيما وراء بلادهم، من بلادٍ أخرى؛ يلتمسون الدين الصحيح، ويبحثون عمن يكون على علمٍ بدين أبيهم إبراهيم.

وكان من هؤلاء ورقةُ بن نَوْفل، الذي كان ينتظر الدين الجديد، ويستبطئه، ويقول: حتَّى متى؟

وكان منهم زَيْدُ بن عمرو بن نُفيل، خرج من مكةَ، يطلب أرضاً، يتعرَّف فيها على دين إبراهيم، ويسألُ الرهبانَ والأحبار، حتى بلغ المَوْصِلَ والجزيرة، ثم أقبل فجال الشام كلها، حتى انتهى إلى راهب، قريب من دمشق، فسأله عن دين إبراهيم؛ فقال له الراهب:

إنك لتطلبُ ديناً، ما أنْتَ بواجدٍ من يدلُّكَ عليه اليوم، ولكن قد قَرُبَ زمانُ نبيٍّ يخرج من بلادك التي خرجت منها، يُبْعث بدين إبراهيم، فالْحَقْ بها، فإنه مبعوث الآن، هذا زمانه.

فرجع زيد بن عمرو، وتوجَّه تلقاء مكة، وقال من قصيدة طويلة له:

رضيت بك اللهم رباً، فلن أرى أديـــن إلٰهـــاً غيـــرك الله ثـــانيـــاً
فَـرَبَّ العبـاد ألْـقِ سيْبـاً[1] ورحمـةً عَلـيَّ، وبـارِكْ فـي بَنِـيّ ومـاليـاً

وقبل أن يَصِلَ زيد إلى مكة قُتل في الطريق.

وبينما الناس في حيرتهم وضلالهم، مُعظمهم يغشى المنكر، وينأى عن مسالك الخير، وقليل منهم يلتمسون طرق الهداية والرشاد ـ إذا انبلج نور الفجر، وآذن بشير الهداية، بلغ محمد عليه الصلاة والسلام الأربعين من عمره، وكانت تأتيه المنامَاتُ الصادقة، لا يرى رؤيا في الليل إلا جاءت في النهار واضحة ظاهرة، فكانت تلك المناماتُ مصابيحَ، تكشف أمامه الطريق.

ثم حبّبَ الله إليه الخلْوَةَ، والبُعْدَ عن الناس، فلم يكن شيءٌ أحبَّ إليه من أن يَخْلوَ وَحْده، يفكّر، ويفكِّر طويلاً في خلق الأرض وما عليها، وفي خلق السماء وما يراه فيها.

وكان عليه السلام يحمل زاده إلى جبل «حِرَاء»[2] فيعتكف فيه شهراً يُطْعم من جاءه من المساكين، وكان لا يأكل من زادِه إلا قليلاً يكفي لإمساك روحِه، ثم يستغرق في تسبيح خالق الأرض والسماء، فإذا انقضى الشهرُ عاد إلى مكة، وكان أولَ شيء يفعله فيها أن يذهبَ إلى البيت الحرام، فيطوفَ به سبعاً، ثم يعودَ إلى بيته، وكانت خديجةُ ربةُ البيت تستقبلُه بوجه مُبْتسم ونفس راضية، وقلب يحنو عليه، ثم تُحيطه بكل أنواع الرِّعاية والتقدير، كما كان عليه السلام ينقل إلى نفسها من روحه الطاهرة دروساً عالية، ويُسْدي إلى بصيرتها نوراً وهُدى، ويأخذ بيدها إلى أسمى المراتب وأعلاها. يا للزوجين الكريمين!

---

(١) السيب: العطاء.
(٢) حِراء: جبل من جبال مكة على بعد ثلاثة أميال.

زوجة تـكلأُ وترعى وتُشجِّع، وزوجٌ يستهدي، ويلتمس النور من رحاب الله، رب الأرض والسماء.

ما أطهرك أيتها الدار! تضُمِّين أكرم نفسَيْن على ظهر الوجود، وما أطيب أرضَك! وما أسمى عَرْشك!

يمضي الزوج في التهيؤ لرسالته، وتمضي الزوجة لتشجيعه ورعايته، وعينُ القَدَر من فوقهما ساهرة، والله من ورائهم محيط.

وحي من الله

خرج محمّـدٌ الأمينُ من بيته قاصداً ـ كعادته ـ في أول شهر رمضان إلى جبل حِرَاء، يَعْتَكفُ في مغارةٍ هناك، مسبِّحاً، ذاكراً، شاكراً، مُسْتَلهِما مفكِّراً. واستمر في ذكره، وتفكيره حيناً من الزمان، حتى إذا أوشك الشهر أن ينتهي نُوره، وتنقضي لياليه، وكان الذاكر الشاكر المفكر قد بلغ من الطهر والصفاء ما بلغ، واستعدّ ليتلقّى إكرام الله إيّاه ـ وتتويجه برسالته، بينما كان في أتمِّ استعداده وصفائه ـ وفي ليلة القدر، التي هي خير من ألف شهر ـ بينما كان كذلك إذ نزل عليه الأمر العظيم؛ من رب السماء؛ نزل عليه في الليلة التي رحم الله بها عباده؛ إذ جاءه جبريلُ وفي يده منديل من حرير؛ فيه كتاب؛ وكان بينهما ما كان.

وبعد أن انصرف جبريل؛ غرق محمد في بحر النور، واستمر في الجبل؛ فلا يتقدم إلى الأمام ولا يعود إلى الوراء.

فلم يَعُدْ إلى بيته؛ ولم يوافِ خديجة كما تعودتْ أن يعودَ إليها بعد تعبُّده في الجبل في موعد معلوم.

واستمرّتْ الزوجة الحانية تنتظر زوجها، ولكنه لا يعود!

أخذت اللهفةُ الشديدةُ الزوجةَ الراشدةَ؛ فأرسلتْ رسلَها إلى الجبل يبحثون عن محمد؛ فبلغوا أعلى مكة؛ وساروا هنا وهناك؛ ولم يأتوا لها بخبر.

واستمرَّ محمدٌ في مكانه حتى أفاق، ثم سار إلى منزله الكريم، فوجد زوجته على أحر من الجمر، تنتظرهُ، وتستبطىء عودته.

فلما رأته فرحت به فرحاً شديداً. . . وأقبلت إليه تسأله خبره، وتستوضحه سِرَّه.

فأقبل عليها. صلواتُ الله وسلامه عليه، وجلس إليها ملتصقاً بها. فقالت له: يا أبا القاسم، أين كنتَ؟ فوالله لقد بعثتُ رسلي في طلبك، حتى بلغوا أعالي مكة، ورجعوا إليَّ.

فقال عليه السلام: «**جاءني جبريل، وفي يده منديل من حرير، فيه كتاب، فقال: اقرأْ! قلت: ما أقرأ. فجذبني بشدة، حتى احتبس مني النَّفَسُ، وحتى ظننتُ أنه الموتُ، ثم أرسلني، فقال: اقرأْ! قلت: ماذا أقرأْ؟ فضمني إليه، حتى ظننْتُ أنه الموت، ثم أرسلني، فقال: اقرأْ! فقلت: ماذا أقرأْ؟ فقال:** ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾[1].

ثم انتهى. فانصرف عني، وهبَبْتُ من نومي، فكأنما كُتِبَتْ في قلبي. فخرجت حتى إذا كنت في وسط الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول: يا محمد. أنت رسول الله، وأنا جبريل. فرفعت رأسي إلى السماء أنْظُرُ إليه، فإذا جبريل في صورة رجل صَافٌّ قدميه في أفق السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله، وأنا جبريل. فوقفت أنظر إليه، فما أتقدمُ وما أتأخرُ. وجعلت أصرف وجهي عنه، في آفاق السماء، فلا أنظر ناحية منها إلا رأيتُه كذلك. فما زلتُ واقفاً، فما أتقدم أمامي، وما أرجع ورائي. ثم انصرف عني، فجئت إلى أهلي».

ما سمعت الزوجة العاقلة الراشدة حديثَ زوجها حتى أصابت محبةُ الإسلام قلبها، ونَفَذَتْ أضواؤه إلى أحاسيسها؛ فاستقرّ إيمانها، واطمأنت نفسها، وارتبطت بحبل الله، تحنو على محمد، وتنصره، بعد أن آمنت بدعوته.

فقالت: أبْشِرْ يا بنَ عمِّ، وأثبُتْ، فوالذي نفس خديجة بيده. إني لأرجو أن تكون نبيَّ هذه الأمة، ثم قامت فجمعت عليه ثيابها تحميه من رعْشة كانت به من أثر ما ناله.

* * *

(١) سورة: العلق، الآيات: ١ ـ ٥.

ثم انطلقت خديجةُ إلى ابن عمها «ورقة بن نوفل» ـ وكان على دين النصرانية، قد قرأ الكتب الدينية، وسمع من أهل التوراة والإنجيل وعرف من كل ذلك ما بَشَّرت به من نبوة محمد، وما أخبرت به من أخباره.

فقصَّتْ خديجةُ رضِيَ الله عنها على ابن عمها ما أخبرها به محمد عليه السلام، فقال ورقة:

ـ قُدُّوس[١]، قُدُّوس. والذي نفسُ وَرَقة بيده لئن كنتِ صدقتني يا خديجة، لقد جاءه النامُوس[٢] الأكبرُ، الذي كانَ يأتي مُوسى عليه السلام، وإنه لنبيُّ هذه الأمَّة...

(١) القدوس: الطاهر المنزه عن النقائص وهو من صفات الله تعالى.
(٢) الناموس: المقصود جبريل عليه السلام.